الحلقة الثالثة ٣

صفحة مطوية من جهود علماء أفريقية

عالم مجاهد جهلته الأجيال

الشيخ الإمام عثمان بن فودي الفلاني

رحمه الله تعالى

سلسلة يقدمها الشيخ:

أبو يحيى الشنقيطي حفظه الله



سلسلة يقدمها الشيخ:

أبو يحيى الشنقيطي حفظه الله

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن مما تسكب له العبرات؛ وتتصدع له القلوب الحية؛ أن يركز إعلامنا عبر وسيلة الفرجة على مسخ هويتنا، وجعل أجيالنا تلهث وراء سراب الغرب وأعلامه المنحلة من الدين والخلق والحياء، وكأننا سنحرر الديار، ونقيم شريعة الواحد القهار، بمسابقات الغناء والرقص والتعري!! متناسين القدوة الصالحة بدءا برسولنا الكريم الذي هو الأسوة والقدوة، والسائرين على نهجه من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

وصدق من قال:

ودولةُ الحقِّ بالإسلام تحكُمُنا   واليـــومَ تحكُمُنـا ظلمًا دُوَيْلاتُ
تقـــودُ أمَّتَنَا للحربِ غانيةٌ   والجيشُ في الزَّحْفِ قد ألْهَتْهُ مغْنَاةُ

إن إعلام الطواغيت اليوم، يركز على بث الشهوات عبر المنحطين، ممن يتسمون بأبطال! الفن والتمثيل؛ مثنيا بدعاة الشبهات ممن يتقنون فن تحريف الكلم عن مواضعه وفقه الهزيمة والخنوع؛ والوقوف مع الجلاد ضد الضحية، وما يحدث في أرض الكنانة مصر الجريحة، وشام الرباط؛ خير دليل على ما ذكرناه؛ كل هذا وذاك ليظل شبابنا في سبات عميق، بعيدين عن حقيقة الصراع و فهم ما يدور حولهم!، وعن السعي الحثيث للبحث عن سبل استرجاع الخلافة الراشدة، والعيش الكريم، تحت ظلال الشريعة، تلك الشريعة التي به تسعد أمتنا وتلتئم جموعنا؛ وتضمد جراحنا، ويقطع الطريق أمام أطماع أعدائنا.

كم أشرقتْ في سماءِ المَجْدِ راياتُ   ورُتِّلَتْ في رحَابِ الخيرِ آياتُ
وكان رَائِدنَـــا يحدُو مسيرتنـــا   الله غايتُنـا الرحمنُ لا اللاَّتُ

وحرصا منا على بث روح الأمل في أمتنا؛ وذالك بتذكير أجيالنا بأنه مازال في الزوايا خبايا! وأن تاريخنا الذي هو المشعل الوضاء لأمتنا، إن هي رجعت إليه لتأخذ منه القدوة والعبرة!، مليء بالنماذج الفريدة في شتي المجالات التي يتنافس فيها المتنافسون؛ ويتسابق في حلبتها، الحذاق ممن لم يرضوا بالضياع والتسكع، والعيش بلا هدف نبيل، وغاية شريفة! وهم على يقين أن ذالك لا ينال بالتمني، ولا بالفخر بالماضي دون الاقتداء به! وأن دون نيل المعالي ووضع اليد على مناكب الجوزاء، مفاوز وقفار وعقبات ، على حد قول أبي العلاء المعري:

أرى العنقاء تكبر أن تصادا   فعاند من تريد له عنادا!

وفي هذه الحلقة؛ من سلسلة صفحة مطوية من جهود علماء إفريقية، نقف مع سيرة من سير أعلام ذلك الصقع، الذي يجهل الكثير من المسلمين، وللأسف أعلامه من علماء ومجاهدين وفطاحلة في كل فن، إن نسبة المسلمين في قارة إفريقيا هي الأعلى في قارات العالم، بما في ذلك قارة آسيا، أكثر قارات العالم ازدحاما بالسكان، هذا على

الرغم من أن القارئ لأحداث وتاريخ هذه الممالك والدول، سيتنابه العجب، حينما يقف على البطولات العظيمة التي سطرها أبطال إفريقيا العظام بدم القاني، خاصة هؤلاء الذين كانوا في الغرب الإفريقي، والذين تصدوا لأعنف وأشرس الحملات الوحشية والتي قادها صليبو إسبانيا والبرتغال وفرنسا وأمريكا!!

وهنا يجدر الإفصاح عن أمر هام، نقوله على مضض!، ألا وهو أن كثيرا من أبناء المسلمين، ممن عشعش إعلام الغرب في أذهانهم، وصور لهم إخواننا الأفارقة في صورة الهمج الوحشيين، أكلة لحوم البشر، وأن التمدن والرقي الذي حصل لهم يرجع بفضل الاستعمار الأوروبي لبلادهم!! والحق خلاف ذلك تماماً؛ ذلك أن فاقد الشيء لا يعطيه، ولا يتنفل من عليه قضاء!! وأن إفريقيا عرفت دولا إسلامية شامخة، على شريعة الإسلام من الكتاب والسنة، بل وعلى منهج السلف فهماً وتطبيقاً، وعلمنا في هذه الحلقة، واحد من أعظم الرجال الأفارقة الذين أدخلوا الدعوة السلفية إلى إفريقيا، وأقاموا دولة عظيمة وكبيرة على منهج السلف الصالح، والعجيب أنه لا يعرفه الكثير من عامة المسلمين، إنه الشيخ الهمام والعالم المجاهد عثمان بن فودي الفلاني رحمه الله.

البيئة والقبيلة والتكوين:

ولد عالمنا (عثمان بن فودي) واسمه الأصلي "محمد" في بلدة "طفل" على أطراف إقليم "جوبير" شمال نيجيريا الآني سنة 1168 هجرية ـ 1754 ميلادية.

وكلمة (فودي)، تعني في لهجتهم، الفقيه مع العلم ومن باب الفائدة؛ فقد أدركنا علماء شناقطة لهم علاقات وطيدة بإخواننا الفلان؛ فحدثوني أن حروف لهجتهم كانوا لوقت قريب يكتبونها بالعربية!، ومع الغزو الفكري لأمتنا، أصبحت تكتب باللاتنية!!.

كان والده معلم القرآن والحديث في قريته، وينتسب "عثمان" إلى قبيلة الفولان العريقة في الإسلام التي أخرجت العديد من العمالقة المتبحرين في العلوم، وفي هذا الجو الديني الطاهر، نشأ "عثمان" فدرس اللغة العربية وقرأ القرآن الكريم، وحفظ كتب السنة، وقد ساعده والده على تنمية ملكة التعمق في العلوم الدينية لما رأى فيه من حبه للدين وخدمته، وشوقه للطلب وصدق الإمام محمد بن أبي بكر الأنصاري المعروف بالقرطبي حيث يقول:

من ذاق طعما لعلم الدين سر به إذا تزايد منه قال واطرباه!

كان لهذه التربية العلمية والأجواء الإيمانية؛ أثر بالغ في تكوين شخصيته وتوجهاته، فشب ورعاً تقياً، آمرا بالمعروف، ناهياً عن المنكر، مجتنباً لما اعتاد عليه قومه من أساليب في الحياة مما ينافي الشرع،وهذا يدلنا على أهمية البيئة التي يعيش فيها المسلم، وأن لها إفرازات على سلوكه وطبعه، لذا شرعت الهجرة في ديننا، سواء بمفهومها الأعم أوالأخص، كل ذلك ليترفع المؤمن عن السفاسف وبنيات الطريق، ويعتز بدينه وسمته الحسن.

قبيلة عالمنا:

وعلى الرغم من انهيار الممالك الإسلامية الكبيرة، إلا إن القبائل المسلمة في إفريقيا قامت بدور عظيم، وجهد كبير في نشر الإسلام وبث العلم الرصين؛ بين الناس داعية إلى تعالى، حاملة مشعل الهداية.

ومن أشهر هذه القبائل المسلمة:

قبائل الماندينج وتنتشر في مالي والسنغال وجامبيا وغينيا وسيراليون وساحل العاج

قبائل الولوف والتوكلور في السنغال ومالي

قبائل الهاوسا في النيجر وشمالي نيجيريا وبنين والتوجو وبوركينافاسو

الكانورى في شمال شرق نيجيريا والكاميرون

لكن الحائز لقدم السبق في هذا المضمار؛ بلا منازع، والناشر للإسلام من بين هذه القبائل، هي قبائل (الفولاني) وهي التي تحملت مسئولية إعادة نهضة الإسلام وإقامة الدول الإسلامية من جديد.

لقد دخل الفولانيون الإسلام على أيدي المرابطين في القرن الخامس الهجري، فتحمسوا له واستعلوا به، وكانوا في الأصل بدوا رحلا، يتحركون باستمرار سعياً وراء الماء والكلأ، وكان موطنهم الأصلي حوض نهر السنيغال، ولكنهم انتشروا في قلب إفريقيا دعاة للفضيلة، من السنيغال إلى تشاد إلى قلب وغرب إفريقيا في أربع هجرات شهيرة، تفرعت خلالها هذه القبيلة الضخمة إلى عدة فروع، ولكن أهم هذه الفروع وأكثرها أثراً في نشر الدعوة إلى الله تعالى، وعودة النهضة للقلب الإفريقي، هجرة الفولانيين إلى نيجيريا، وفي هذا الفرع ظهر صاحبنا، الذي أعاد المجد والعزة للإسلام بقلب إفريقيا وهو الأمير الفولاني عثمان دان فودي رحمه الله.

نقطة التحول في حياة عالمنا المجاهد:

في رحلته الطويلة إلى الحج مع والده، وهو إذ ذاك في سن الشباب، قدم مكة المكرمة، والدعوة السلفية للشيخ (محمد بن عبد الوهاب) في أوج قوتها وانتشارها، حيث كان الشيخ (محمد بن عبد الوهاب)، مازال حياً، يعلّم الناس ويبث العلم في أوساطهم، فلما وصل (عثمان بن فودي) هناك التقى مع المشايخ والدعاة السلفيين وسمع منهم الدعوة السلفية وأسلوب الحركة وكيف قامت؟ وكيف انطلقت من منطقة "الدرعية" لتشمل الجزيرة كلها، وحضر المجالس العلمي للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحم الله الجميع.

حينها قرر الشيخ عثمان البقاء لفترة بمكة للاستزادة من العلوم، وأخذ تجربة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لنقلها لأرضه، التي كان الوثنيون وقتها يحاولون السيطرة عليها، ويركزون على نشر خرافاتهم في أوساط العامة. وهنا يمكن القول أن هذه الرحلة، كان لها أثر بليغ في تحول الشيخ عثمان رحمه الله.

بداية مشواره الدعوي:

بعد الحج عاد الشيخ عثمان بن فودي؛ إلى بلاده في إقليم "جوبير" في شمال نيجيريا، وفى نيته نشر الدعوة السلفية في بلاده، ومحاربة البدع المتفشية هنالك، والوقوف في وجه وحف الوثنين، الذين يرمون إخراج العامة من دينهم، فاستجاب لدعوته كثير من أبناء قريته "طفل"، فأسس الشيخ عثمان بن فودي حركة دعوية على منهج السلف وأطلق عليها اسم الجماعة.

أخذت الدعوة السلفية وحركتها المسماة بالجماعة تنتشر بين القبائل الإفريقية وتلقاها العامة بالقبول، ودخل فيها أفراد من عدة إمارات، ومن شعوب عدة منها الهاوسا، والطوارق، الزنوج، إضافة إلى قبيلته الأصلية "الفولاني" التي كانت أكثر القبائل انضماماً لدعوته وحركته، ثم حققت دعوة الشيخ عثمان بن فودي؛ نجاحاً كبيراً في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية المنتشرة في شمال وجنوب نيجيريا، ويوما بعد يوم ازدادت جماعته قوة ونجاحاً واتساعاً وأصبحت ساعة الصدام وشيكة مع قوى الشر والضلال.

بداية الصراع مع الوثنين:

لقد ضاق ملوك الوثنين ذرعا، بدعوة الشيخ عثمان وتلك سجية الباطل مع الحق! فلا يرضي بسماع صوته، ونسيم خيره الذي يبثه، لذا قرروا أن يهددوه لعله يرعوي حسب زعمهم!! فأرسلوا له يهددونه بأبشع العذاب والثبور، إن لم يكف عن دعوته!! وصدق أبو الطيب المتنبي حين قال:

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا   فأهون ما يمر به الوحول!

عندها اجتمع العالم المجاهد العظيم مع رفاقه، واستشارهم في كيفية مواجهة هذه التهديدات، فأشار الجميع وهو أولهم بوجوب إعلان الجهاد على الكفار وأعداء الدين وذلك سنة 1804 ميلادية ـ 1218 هجرية.

وبمجرد أن أعلن الشيخ عثمان بن فودي، الجهاد على الوثنيين حتى أتاه المسلمون من كل مكان في شمال نيجيريا يبغون نصرة إخوانهم ضد الكفار، فلقد كان لإعلان الجهاد مفعول السحر في نفوس المسلمين، إذ عادت لهم الغيرة والحمية لدينهم، وفى نفس الوقت جاءت مساعدات كبيرة لأمراء "جوبير" من باقي إمارات الهاوسا (غرب نيجيريا)، واستعدت المنطقة بأسرها لفصل جديد من فصول الصراع الأبدي بين الإسلام والكفر، انتهى بفضل الله عز وجل لصالح الجماعة المؤمنة، وانتصرت الدعوة السلفية على الجماعات الوثنية وأصبح الشيخ عثمان بن فودي، أميراً على المنطقة الواقعة في شمال غرب نيجيريا، وبايعه المسلمون هناك أميراً عليهم، وتلقب من يومها بالشيخ إقتداءً وتأسياً بالشيخ (محمد بن عبد الوهاب)، واتخذ من مدينة "سوكوتو" في أقصى الطرف الشمالي الغربي لنيجيريا مركزا لدعوته، وذلك سنة 1809 ميلادية ـ 1223 هجرية.

بداية بناء الدولة:

إن أهل الصدق والصفاء، لا يعشون لذواتهم، وإنما يبذلون الغالي والنفيس في سبيل إعزاز دينهم وأمتهم، لأنهم ينطلقون من منطلق العبودية لله، والحرص على هضم حقوق النفس! من هنا لم يكن الشيخ عثمان بن فودي، من الرجال الذين يبحثون عن زعامة أو إمارة، وبمجرد حصوله عليها يكف عن سعيه وجهاده ويجلس للتنعم بما حازه وناله، بل كان يبغي نصرة الإسلام ونشره بين القبائل الوثنية، يبغي الدعوة لهذا الدين في شتى أرجاء القارة الإفريقية.

لذلك قرر العمل على إعادة بناء الدولة الإسلامية من جديد، وتوسيع رقعة الإسلام بالجهاد ضد القبائل الوثنية التي اجتمعت على حرب الإسلام وأهله.

قرّر الشيخ عثمان اتباع إستراتيجية الجهاد على عدة محاور، وضم الشعوب الإسلامية تحت رايته، فضم إليه عدة شعوب وقبائل مسلمة كانت متناثرة ومختلفة فيما بينها، وبدأ بالتوسع في ناحيتي الغرب والجنوب الغربي، حيث قبائل "اليوروما" الكبيرة، والتي هي أصل الشعوب الساكنة في النيجر ونيجيريا، فدانت له هذه القبائل ودخلت في دعوته، وأخذت الدولة الإسلامية في الاتساع شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت أقوى مملكة إسلامية في إفريقيا وقتها.

الشيخ عثمان وبناء الكوادر:

لقد كان (عثمان بن فودي) رجل دولة من الطراز الأول، وداعية مجاهداً مخلصاً لدينه وأمته، ولقد أدرك أن بقاء والدولة الإسلامية التي بناها في غرب إفريقيا لن يصمد طويلاً، إذا لم تتحرك هذه الدعوة وتنتشر مبادئ السلفية بين الناس، وأيضاً إذا لم تتسع وتتمدد دولته الإسلامية التي بناها بجهاده سنين طويلة.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف السامي اتبع (عثمان بن فودي) سياسة حكيمة تقوم على بناء الكوادر التي تواصل حمل الراية ونشر الدعوة، وكان لعثمان بن فودي عين فاحصة تستطيع انتقاء النجباء والأبطال وحملة الدعوة، خاصة وأن فتوحاته التي قام بها في غرب "نيجيريا" قد حركت الحماسة والحمية للإسلام في قلوب الكثيرين، ومن هؤلاء الكثيرين انتقى الشيخ ثلاثة نفر كان لهم أعظم الأثر والدور الكبير في خدمة الإسلام والمسلمين، أولهم الشيخ (أدم) وهو شيخ من أهل العلم من أهل الكاميرون، قد حركت فتوحات عثمان بن فودي حب الجهاد في قلبه، وبدأ يدعو الناس إليه وإلى نشر الإسلام في القبائل الوثنية، فلما وصلت أخباره للأمير عثمان بن فودي أرسل يستدعيه من الكاميرون سنة 1811 ميلادية ـ1226 هجرية، فلما حضر جلس معه وكلمه عن مبادئ الحركة وعقيدة السلف، وأقنعه بوجوب الجهاد فى سبيل الله لنشر الإسلام فى قلب القارة الإفريقية، فلما انشرح صدر الشيخ أدم للفكرة، أعطاه عثمان رايته البيضاء وهى رايته فى الجهاد، وكلفه بمواصلة الجهاد حتى

ينشر الإسلام فيما يلى نهر البنوى جنوباً وهو فرع كبير من فروع نهر النيجر العظيم، فقام الشيخ أدم بالمهمة على أكمل وجه، حتى أدخل بلاد الكاميرون كلها فى الإسلام، وكافأه الأمير عثمان بن فودى بأن جعله أميراً على الكاميرون، وظلت الإمارة فيهم حتى احتلال الإنجليز للكاميرون سنة 1901 ميلادية ـ 1319 هجرية.

أما الرجل الثانى فكان أحد جنود الشيخ واسمه حمادو بارى وقد اشترك فى معركة الجهاد الأول ضد أمراء "جوبير" الوثنيين، وبتواصل الجهاد، بانت نجابته وظهرت شجاعته وإخلاصه لنشر الدين، فكلفه عثمان بفتح بلاد الماسنيا "واقعة فى مالى الآن" ونجح حمادو فى مهمته خير نجاح، فكافأه عثمان بأن أعطاه لقب الشيخ وجعله أميراً على منطقة الماسنيا، وأمره بمواصلة الجهاد لنشر الإسلام، ولقد أثبت الأمير حمادو الشيخ أنه من أنجب وأفضل تلاميذ الإمام عثمان بن فودى، فلقد نظم دولته على نسق دولة الخلافة الراشدة، حيث قسمها إلى عدة ولايات، وأقام على كل ولاية والياً وقاضياً ومجلساً للحكم، كهيئة استشارية للحكم الإسلامى على الكتاب والسنة، وعمر البلاد فازدهرت دولته بقوة ووصلت إلى "بوركينافاسو ،وسيراليون، وغينيا بيساو!!

أما الرجل الثالث فكان الحاج عمر وأصله من قبائل الفولانى عشيرة الشيخ عثمان، ولد سنة 1797 هجرية، أى أنه كان فى أوائل شبابه، والشيخ عثمان فى أواخر حياته، ولكن هذا الشاب، قدر له أن يجتمع مع الإمام، وذلك أن الحاج عمر كان محباً للدعوة والجهاد، فلما اشتد عوده قرر الرحيل إلى بلد الإمام عثمان ليراه ويسمع منه وبالفعل ذهب إليه ورآه الإمام عثمان فتفرس فيه النجابة والفطنة والشجاعة، فنصحه بأن يذهب إلى حمادو الشيخ ويلتحق بخدمته، لعله أن يكون خليفته حمادو الشيخ بعد رحيله فى قيادة المملكة الإسلامية هناك، وبالفعل نجح الحاج عمر أن يلتحق بخدمة حمادو الشيخ ويخلفه بعد رحيله، وقاد القبائل الإسلامية قيادة عظيمة وكان جيشه يقدر بأربعين ألف مقاتل، وحارب الوثنيين والفرنسيين على حد السواء، وتولى أولاده من بعده قيادة المسلمين فى هذه المنطقة التى ابتليت بأشرس هجمة صليبية فى تاريخ البشرية.

وبالجملة فقد نجح الإمام المجاهد عثمان بن فودى، وأعظم أمراء إفريقيا فى بناء قاعدة عريضة من المجاهدين والقادة والأمراء الذين قادوا الأمة المسلمة فى قلب إفريقيا، وأقاموا أعظم الممالك الإسلامية فى هذه البقعة الغامضة عن ذهن أبناء المسلمين الآن!

وفاته رحمه الله:

فما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

توفى الإمام المجاهد الأمير عثمان بن فودي،سنة 1818 ميلادية ـ 1233 هجرية، بعد أن أعاد للإسلام مجده، وأدخل الدعوة السلفية المباركة إلى القلب الإفريقى، وأبقى للإسلام دولة قوية ظاهرة صامدة أمام هجمات

الأعداء، حتى بعد وقوعها فريسة للاحتلال الصليبي، بقيت القلوب حية، مجاهدة، تقاوم الأعدء، تحافظ على دينها وعزتها، فجزا الله عز وجل هذا الإمام على ما قدمه للإسلام في إفريقيا، ورفع درجاته في عليين مع المهديين وهكذا هم العظماء تظل بصماتهم الطيبة التي خلفوها، معالم نيرة كلما مر عليها الناس، أثنوا عليها خيرا، وفي الحديث الذي أسنده البخاري عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**أنتم شهداء الله في أرضه**))

أخي القارئ الكريم: كانت هذه صفحة مطوية من سيرة عالم مجاهد، نحسبه تجرد لرب البرية، وبذل كل شيء في سبيل إعزاز دينه، ورفع الضيم عن أمته، ولا تقل أخي صفحة وطويت! فكلا وهيهات فلا زال أمثاله وأحفاده، يسطرون أروع أمثلة البذل والعطاء لهذا الدين العظيم، وإن تعجب فدونك قول حبيبنا صلى الله عليه وسلم: ((**أمتي كالغيث،لا يدرى خير أوله أم آخره**))..

فشمر أخي للحاق بركب المضحين، وإياك أن تقنع بالدون، فقد قال أبو الطيب المتنبي:

إذا غامرت في شرف مروم   فلا تقنع بما دون النجوم!!

نسأل الله أن يعلي هممنا، وينصر أمتنا، ويقطع دابر عدونا.

وإلى حلقة قادمة من هذه السلسة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

أخوكم: أبو يحيى الشنقيطي

*   *   *

للمزيد من التوسع عليك بالكتب التالية:

- حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، للدكتور: شيخو غلادنثي
- الدّعوة الإسلامية في إفريقية
- الإسلام في نيجيريا
- حركة التجارة والإسلام في التعليم الإسلامي في غربي إفريقية، للدكتور: مهدي رزق الله
- تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا، إبراهيم طرخان
- تاريخ السودان الغربي: عبد الرحمن السعدي